الانبعاث الحضاري في شعر صلاح عبد الصبور
أسطورة تموز نموذجا

طالبة دكتوراة بوعمامة طائعة
جامعة سيدي بلعباس

إن الدارس لرغبة الشعراء في تمثلهم للقيم الحضارية في تجربتهم الشعرية يستدعي منه الوقوف على جملة من الأسئلة التي نراها أساسية في ربط الصلة بين حاضر الشعر العربي المعاصر في شعرية التفاصيل اليومية ، ومدى مطابقتها للمشروع القومي الذي تبناه كثير من شعراء القصيدة الحداثية ،بدءا من الرواد أمثال بدر شاكر السياب ،عبد الوهاب البياتي،خليل حاوي.وانتهاء بشعراء ما بعد الحداثة،الذين يراهنون على مسلمة استلهام الإرث الرمزي للميثولوجيا العربية القديمة،حسب تباين بيئاتهم واختلاف مشاربهم الإديولوجية.

وفي ضوء هذه المعطيات ولا سيما أمام استشراء ظاهرة تمثل الفكر الأسطوري القديم،هل بالإمكان إعتبار صلاح عبد الصبور من الشعراء التموزيين؟وكيف لم يتم تصنيفه ضمن جيل الرواد من الشعراء الذين احتفوا برمز تموز في ضوء ثنائية الموت والانبعاث مهما اختلفت أسماؤه ونعوته أمثال: أدونيس، جبرا إبراهيم جبرا، بلند الحيدري ،أنسي الحاج. وهل كونه لم يصرح بذلك في شعره

ولم يدعو إليه بشكل لافت ؟وقد استعمل هذا الرمز بتنويعات مختلفة، وتضمينات متباينة أكثر من عشرين مرة في مختلف دواوينه .

ولأن أسطورة تموز ليست مصرية بالمعنى المتداول بل بابلية كما اشتهرت؟ بينما".. تموز بابلي الاسم ، عالمي الرمز، يموت من أجل أن يحيا ، يشكل موته موتا للخصب ،وتشكل عودته عودة للحياة ،اذن فهو واهب للحياة ومجدد خصبها ،ولابد لهذه التضحية التي يقوم بها تموز من معنى. ولابد للجدب والخراب والعقم في الحياة من تموز ينهض بعبء رسالتها.. "[1] .

وعلى الرغم من اختلاف مسمياتها،وتشابك جزئياتها. وبقدر تباين إستخداماتها في كيفية إمتصاص واستلهام تيماتها ، فإن التفاصيل لم تكن تعني للشاعر شيئا مهما ، إذ هي بالنسبة إليه تراث عالمي يمكن استثماره لتوصيل الفكرة ، بحيث يصبح نقل التجربة من مستوى شخصي إلى جوهر إنساني عالمي "..وسواء كانت هذه القوة التي تدفع الحياة إلى الاستمرار هي أدونيس أو تموز أو إيزيس وأوزيريس أو كانت ملكاً بالفعل، فإن نسيج القصة واحد، وطقوس الاحتفال بموته وبعثه واحدة. ويتألف نسيج القصة أساساً من النقيضين: الموت والبعث، والجدب والخصب، والحزن والبهجة.."[2] وهي الثنائيات التي طبعت تجربة الشعر التموزي.

تأسيسا عليه لا يعني ذلك أن الأساطير المصرية لم تعرف

أسطورة الموت والإنبعاث ، وإن لم تسمها بنفس الإسم ونفس التفاصيل ".. وإذا كانت المراسيم تختلف في كل قطر في الأسماء والتفاصيل فقد كانت متماثلة في جوهرها،وموضوع هذا البحث هو موت هذا الإله وبعثه كما افترضه الشرقيون–وهو إله ذو أسماء كثيرة ولكنه جوهريا واحد.."[3]. فقد تكررت بصيغ وأسماء مختلفة "..تكررت أسطورة الموت والانبعاث في حضارات متعددة،وفي عصور تاريخية مختلفة ،لانها اتخذت النماذج الأصلية رموزا فكانت تعبيرا عن حقائق إنسانية مطلقة،فتكررت الرموز ذاتها في أساطير اختلفت فيها الأسماء وبعض الأحداث العرضية،لكنها جميعا اتخذت بناءا واحدا وجسدت حقائق انسانية واحدة .."[4].

كما عرفت مصر أساطير شبيهة ، وكانت المناطق المحيطة بشرقي البحر المتوسط مسرحا لهذه الطقوس ".. فقد جسد سكان مصر وغربي آسيا موت الطبيعة اسنوي وانبعاثها بإله يموت كل عام ويبعث ثانية.واتخذ سكان المناطق المختلفة أسماء مختلفة لآلهة متجانسة او تكاد تكون ذات طبيعة واحدة.فكان اوزيريس وتموز وادونيس وآتيس الها واحدا وان اختلفت اسماؤه.."[5]ويعرف عن شعب مصر القديمة إحتفاؤهم بإله عانى وقاسى أشد أنواع العذاب ويمثل رمز الصبر والتحمل ، امتدت حكاياته لتصل آفاق أبعد ، وظهرت في آداب أمم مختلفة "..اوزيرس رغم كل ما عانته–وهذه شخصية فتنت من الناس حتى عبت المصريين،وكان لها اتباع بعد

انحطاط مصر،في طول الامبراطورية الرومانية وعرضها.. "[6].

البعد الحضاري في أسطورة الانبعاث

يستحضر صلاح عبد الصبور رمزية الانبعاث ليخلق منها حلما ورغبة تارة في حضارة بدون شوائب،وفي أخرى تحسرا على ضياع حضارة كانت قائمة، فيعبر في قصيدة (الظل والصليب) عن رغبته في إستعادة الطهارة والصفاء ،وبساطة إنسان عصر ما قبل الحضارة المعاصرة،بعدما صار إنسان العصر مجرد هيكل:

طهارة بيضاء تنبت القبور في مغاور الندم
ندفن فيها جثث الافكار والأحزان ،من
ترابها...
يقوم هيكل الإنسان
إنسان هذا العصر والأوان[7]

ونتيجة لهذا الوضع المتعالق ما بين الحزن والغياب، فان ذاكرة الشاعر تستدعي- بشكل ضمني-صورة بنيلوبي الأسطورة:

.. ومهجتي على الفراش كل ساعة تميل
وأغزل التراب في سكينتي
وأصنع الأكفان، ثم انجز التابوت[8] .

وفي قصيدة (القديس)،يقف موقف وسط بين الموقفين السابقين ،في محاولة لتدارك هفوات التجربة،والارتكان إلى لحظة تفكير ،تعتبر هي ذاتها بعث جديد ،ففي اللحظة التي يحاول فيها بعث الروح في العظام أو الأنفس الخائرة والمترهلة الراكنة والراكدة ،يرتب خطاه ليعيد بعثها من جديد:

ألوذ بركني العاري،بجنب فتيلي المرهق
وأبعث من قبورهم عظاما نخرة ورؤوس
لتجلس قرب مائدتي ،تبث حديثها الصياح والمهموس[9].
وينعكس ذلك بعمق في قصيدة(أغنية إلى الله)
وهل يعود يومنا الذي مضى من رحلة الزمان؟
.....
فملأمنه كأسنا ونحن نمضي حدائق التذكارات
ثم يمر ليلنا الكئيب
ويشرق النهار باعثا من الممات
جذور فرحنا الجديب[10].

وفي مقطع آخر من نفس القصيدة وفي سياق التمدد الذي يقودنا باتجاه التحولات والتمططات الكونية في الأسطورة الإغريقية ، فهو يعاود ترديد:

هبت ريح ألقته للسفح

وهوى في جوف الآفاق الممتدة
وعاه السفح،فلم عظامه
حتى دبت فيه الروح[11].

جمالية توظيف رموز الانبعاث

يعتبر صلاح عبد الصبور ان التعبير الجمالي باستعمال الاشارات الاسطورية يتيح للشاعر امكانية السيطرة على لغته لتوصيل أفكاره وتبليغ مبتغاه ففي ديوانه أحلام الفارس القديم يتناول ثيمة الموت والانبعاث كرمز حمال أوجه.ويركز بكثافة غير معهودة في قصيدين هامتين في الديوان هما قصيدتا أحلام الفارس القديم ثم قصيدة الحلم و الأغنية.فيقول في الأولى:

يدفعنا من مهدنا للحدنا معا
تذوب تحت ثغر شمس حلوة رفيقة
ثم تعود موجتين توأمتين
أسلمنا العنان للتيار
في دورة إلى الأبد
من البحار للسماء
من السماء للبحار[12]

بينما لا ينفك يعاود التركيز على التيمة المصدرفي مقطع آخر يقول:

وحين يأفل الزمان ياحبيبتي
يدركنا الأفول
وينطفئ غرامنا الطويل بانطفائنا
يبعثنا الإله في مسارب الجنان درتين
بين حصى كثير[13]

أما في قصيدة الحلم والأغنية وبغنائية تستعين بلغة الرمز الخفية يرجو عودة وإعادة بعث مصر الحلم مصر أخرى جديدة:

ونعيش أيامنا الملآى بصوتك منشدا لغة رخيمة
كي يوقظ الموتى من الأجداد
يبعث من ركام العالم المدفون أطياف
إنتصارات قديمة
لتعودي للوادي ،وتبعث في ثرى مصر الجديدة
والعظيمة[14].

ويتمنى بخفوت في الصوت لكن بروح متغنية حزينة عودة الزعيم الذي دفن، ففي نفس القصيدة يردد بنبرة حزن وأسى،وبنزعة درامية غنائية في نفس الوقت، يردفها تساؤل مرهق دبت فيه روح اليأس:

هل مات وأحزناه

آه لو يعود لبرهة ويجيل نظرته،
ويكشف عن غد بعض الضباب
أواه،لكن كيف آب إلى التراب؟
ولم يحن وقت الإياب
القول يرهقنا[15]

لكن الشاعر لاينسى في غمرة أحزانه أن يخلد ذكرى البطل الذي أعاد إحياء مصر من موتها وسباتها،كأنه رمز يريد أن يصبغه بطابع أسطوري ،أو طقس يريد تسيخ ممارسته:

كأن مصر الأم كانت قد غفت
كي تستعيد شبابها ورؤى صباها
وكأنها كانت قد احترقت
لتطهر ثم تولد من جديد في اللهيب
وخرجت أنت شرارة التاريخ من أحشائها
لتعود تشعل كل شيء من لظاها[16].

أما في قصيدة الشمس والمرأة فيقابل إعادة البعث بالطهر لتولد شابة عذراء حيث تصبح الشيخوخة ودناسة الماضي أشبه بالموت، ويكون الصبح بمثابة ميلاد جديد :

،بطت عن مضجعها لما جاء الليل،
بلت شيخوختها في ماء البحر

أغفت حتى تولد في الصبح الداني عذراء[17].

أما في قصيدة الخروج من ديوانه أحلام الفارس القديم فيتمثل الشاعر العودة من الرحلة وكأنها إعادة بعث جديد، فهو يصرح قائلا " .. أخرج من واقع حياتي إلى واقع رجوت أن يكون أكثر نورا وصفاء.." [18]،وتصير العودة طهارة وصحو في مدينة لا تشوبها مخلفات الماضي.و يصبح الماضي مكانا للقهر والموت يقابله السفر أو الخروج-الرحلة- الذي يعني التطهر والصحو فهي "..توق الإنسان إلى التحرر،والحياة في مدينة النور..[19] أليس هو القائل:

والموت في الصحراء بعثي المقيم
لو مت عشت ما أشاء في المدينة المنيرة
مدينة الصحو الذي يزخر بالأضواء[20].

يقول صلاح عبد الصبور في هذا المعنى "..وقد ظل معنى الرحلة ينمو في نفسي، منذ ذلك الحين، ويكتسب أبعاداً جديدة من المفارقة والنصب، والولاء فيها للشعر، والرحلة تبدأ بعد التأهب الساكن لزورة الشعر التي لا تجيء، فيخرج إليه الشاعر طالباً عطاءه، بعد أن ينـزع عن نفسه كل شارات الحياة متجرداً كتجرد الحاج إلى قدس الأقداس.." [21].

أما في ديوانه الإبحار في الذاكرة الذي يعد من أغنى دواوينه غنائية وإستخداما للمعجم الأسطوري ، نجده يعكس دلالة الموت التي تقابلها الحياة والبهجة مثل ثنائية تابوت/ رماد ،فالقصيدة بحد ذاتها تحمل عنوان (الشعر والرماد):

وتصلب جسمي في تابوت العادة والخوف
بعد أن احترقت أو كادت بهجة عمري
إذ رمت الأيام رماد حياتي في شعر[22]

واخيرا، تبقى أسطورة (انتيجوني)، التي تمثل الصراع بين القانون الشعري الذي يقضي بدفن جثة أخيها، والقانون الوضعي الذي يستلزم تركها في العراء:

ألم أدفنك منذ عام
أيتها الجثة الغريبة[23].

يكتشف المتتبع لتعامل صلاح عبد الصبور مع الأسطورة أنه لم يتعامل سوى مع الأساطير الرئيسية في الثقافة الإغريقية، رغم ثراء مضامينها وتعدد قصصها الضمنية، دون ان يلفت النظر الى روافدها ومسمياتها.

ومن ثم فإن إستعماله للأسطورة كان يستدعي الرصد العاطفي والعقلي لها، وامتصاص طاقتها الإيحائية وخاصة رمز

الموت والانبعاث ، نظرا لعمق وكثافة مدلولاته، دون التأشير عليها، وهو الأمر الذي وفر التربة الخصبة أمام الشاعر ليبث أفكاره ويدعو إليها ، على غرار ما فعل غيره من الشعراء ، ومنه وجب اعتباره تموزيا بمطلق المعنى على قدم المساواة مع غيرهمن- التموزيين- بالموازاة مع الظروف والبيئات التي أنتجت الخطاب التموزي على الرغم تباعد الجغرافيا.

الهوامش

1 - علي عبد الرضا: الأسطورة في شعر السياب،دار الرائد العربي.بيروت،ط2 ،ص-52

2 - نبيلة إبراهيم: الإنسان والزمن في التراث الشعبي، مجلة الأقلام، بغداد أيار 1976، العدد 8، ص24.نقلا عن الاسطورة في شعر السياب ،ص52.

3 - جيمس فرايزر:ادونيس،ترجمة جبرا ابراهيم جبرا،المؤسسة العربية للدراسات والنشر.ط3-1982،ص-18.

4 - ريتا عوض:اسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث.المؤسسة العربية للدراسات والنشر.ط1-1974،ص 46.

5 - نفسه ، ص 41.

6 - ه.فرانكفورت،أ.ه.فرانفورت:ماقبل الفلسفة.المؤسسة العربية للدراسات والنشر.ط2-1980،ص 30.

7 - أقول لكم ، ص-149.

8- نفسه،ص-242.

9- نفسه،ص-176.

10- نفسه،ص-208.

11 - نفسه،ص-224.
12-.أحلام الفارس القديم ، ص-243.
13- نفسه ، ص-244.
14- نفسه ، ص-343.
15- نفسه ، ص-341.
16 - نفسه ، ص-342-343.
17- نفسه ، ص-328.
18- حياتي في الشعر ،ص-188
19- نفسه ،ص-189.
20- أحلام الفارس القديم ،ص-237.
21- حياتي في الشعر،ص 17
22 -الإبحار في الذاكرة ،ص-19.
23- الناس في بلادي،ص-317.